انحطاط الأمم

طبيعته وأسبابه

الانحطاط فى الأمم حقيقة واقعة يشهد بها التاريخ . وهو فى لبابه يعنى أن الأمم يأتى عليها حين من الدهر تنسى فيه ثقافتها وعلومها وفنونها وصناعاتها وتقاليدها وشخصياتها ، أو تنسى الأنواع الرفيعة من هذه الأشياء وتقنع بالقليل السهل منها فتنحط حضارتها أى تنخفض عن المستوى العالى السابق الذى كان يحتاج إلى مقادير أوفر من الفنون والعلوم .

ويثبت التاريخ أن هناك علوما كان الإغريق يعرفونها ثم اندثرت ولم تبعث إلى الحياة من جديد إلا فى أواخر القرن التاسع عشر، كما أن هناك نظريات علمية كان الصبيان فى أثينا يعرفونها حوالى سنة ثلثمائة قبل الميلاد صار العلماء يجهلونها حوالى سنة ألف بعد الميلاد .

وآثار المصريين القدماء وعادياتهم تثبت أن الأمم القديمة مرت بها عصور ذهبية ثم لأمر ما أو لأمور كثيرة طرأت عليها عصور أخرى أنستها أسباب رقيها القديم فانخفض فيها مستوى الحضارة .

يجب إذن أن نسلم بأن الحضارة تنحط ، فما هى الأسباب المؤدية إلى هذا الانحطاط ؟

من الأقوال المألوفة أن الأمم كالأفراد تهرم وتشيخ ، وأنه عندما تبلغ أمة ذروة رقيها فإنها بذلك تستكمل شبابها ثم تدب إليها الشيخوخة شأنها فى ذلك شأن الفرد سواء بسواء . ولكن هذه المشابهة مع ما فيها من سهولة التفسير واغراء البديهة لا ترتكز على أساس . لأن الأمة ليست كالفرد وليس هناك ما يؤيد القول بأنها تشيخ ، إذ مادامت الأمة تحتفظ بثقافتها ورقيها وتتنبه إلى الملاءمة بينها وبين العصر فانها تظل محتفظة بحضارتها فلا شىء يدعو عندئذ إلى انحطاطها . وكثير من المؤرخين يعزون انحطاط الأمم إلى غارات الهمج ، وهذا صحيح فان الهمج من التتار قد قضوا على حضارة العرب فى بغداد ، كما أن غارات القوط والوندل والهون الذين غزوا الدولة الرومانية قد قضوا أيضا على حضارة الرومان ، ولكن يجب أن نلتمس أسباب الانحطاط فى كيان الأمة أى فى أحشائها الداخلية قبل أن نرده إلى الغارة الأجنبية ، لأن الأمة الراقية المتنبهة يجب أن يؤدى بها رقيها إلى أن تدخل فى حسابها هذه الغارات الأجنبية وتستعد لمكافحتها وتأمين نفسها منها ، وغارات التتار والهون والقوط

والوندل إنما نجحت وعممت الفوضى وأودت بالحضارة لأن هذه الحضارة نفسها كانت قد فسدت من الداخل وأصبحت كالبيضة الفاسدة تكسرها أهون الصدمات .

والحضارة ترتكز على الثقافة وما الثقافة إلا مجموعة المعارف والآراء والأخلاق والعادات والأنظمة . فإذا اختلت الثقافة فلا بد من انحطاط الحضارة . وأول علامات الاختلال فى الثقافة قلة الملاءمة بين الثقافة القديمة والبيئة الجديدة. كأن يحدث مثلا حين يكون للأمة نظام معين لقواتها الحربية ثم تطرأ طوارئ تقتضى الزيادة فى القوات أو التنقيح فى الآلات فيجمد قادة الجيش و يرفضون هذه الزيادة أو هذا التنقيح لأنهم يلتزمون ثقافة حربية قديمة لا تلائم العصر الجديد أو البيئة الجديدة فيكون الصدام وتكون الهزيمة . و إنما يحدث الانحطاط فى الحضارة بمقدار رقيها ، فكلما كانت الأمة راقية أو ممعنة فى الرقى كان الانحطاط عظيما فادحا . ذلك لأن الرقى ينأى عن البساطة ويتألف من عناصر مختلفة دقيقة فى تركيبها ، دقيقة فى توازنها وتآلفها . مثال ذلك مدينة كالقاهرة . كانت قبل نحو ستين سنة قليلة السكان بدائية العيش إلى حد ما ، وكان بها نحو ثلاثمائة أو أربعمائة سقاء يحملون الماء فى قربهم كل يوم للسكان فى بيوتهم . ومثل هذا النظام البدائى لا يمكن أن يختل إلا بمجزرة عامة تقع بين السقاين . وحتى هنا ليس الاختلال عظيما . لأن صنع القرب من جلود الجداء وحمل الماء فيها من النهر إلى البيوت ليس فنا دقيقا يشق تعلمه. ولكن لو انتقلنا من هذه الحال الساذجة إلى حال القاهرة اليوم وهى تتزود بالماء من شبكة الأنابيب التى تمتد تحت أرضها وتخيلنا قنبلة تقع على المركز الأصلى لهذه الأنابيب لعرفنا مقدار الاختلال العظيم الذى يحدث للسكان والقلق بل الفوضى التى تتفشى من انقطاع الماء عنهم . وقل مثل هذا فى وسائل الإضاءة أو تزويد البيوت بالطعام وسائر الحاجات ، فانتكاس الحضارة إنما يعنى به الارتداد عن درجة معينة فى ثقافة إلى درجة أقل منها . وكلما كانت الأمة أقرب إلى سذاجة العيش كان انحطاطها بعيد الاحتمال ، بعكس ما لو كانت كثيرة الفنون دقيقة الصناعات فإن انحطاطها يكون عظيما عند ما تختل نظمها وتجمد ثقافتها .

وللحضارة أقيسة ومثليات أخلاقية تنضبط بها فاذا اختلت هذه الأقيسة انحطت الحضارة . ولكن كيف تختل ؟

تختل بالترف. وواضح أن جميع الأمم التى بلغت ذروة حضارتها أخذت فى الترف والانغماس فى اللذات والانحراف فى الشهوات . والترف يؤدى خدمة اجتماعية إذا كان التوازن لم يختل. لأن الترف فى ذاته درجة من الرفاهية تعلو على المستوى العام . وهو ، أى الترف ، ينشأ بين الخاصة ولكنه قد ينتهى بأن ينتشر بين العامة و يدخل فى عداد ألوان الرفاهية . ولكن إذا أقبلت الطبقة التى تتولى شؤون الأمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإدارية على الانغماس

فيه ثم دعاها الانغماس إلى الانحراف فانها تلهو عن الجد وتركن إلى الخمول وتسرف فى إنفاق المال فتفقد بذلك مكانتها الارشادية للأمة كما أنها لاتستطيع بذل المجهود للمحافظة على مكانتها ولا على معارفها وأقيستها .

كذلك تختل الأقيسة عند ما تتحارب الطبقات فى الأمة الواحدة . كما يحدث بين العمال والمتولين أو بين الكهنة والشعب أو بين الموظفين والجمهور . فان لكل جماعة ما يسمى " الروح الجماعى " الذى يجعلها تحس أن لها شخصية مستقلة ومصلحة مستقلة وكيانا مستقلا فاذا كثر التصادم بين الطبقات المختلفة وشعرت كل جماعة أن مصلحتها لاتنطبق على مصلحة طبقة أخرى اشتد التنازع فى الأمة وقد ينتهى الى حرب أهلية . والحرب الأهلية أدعى الى الفوضى من حرب تنشأ من غارة عدو أجنبى . لأن الأولى تشتت طبقات الأمة وتبدد أقيستها الأخلاقية والاجتماعية فى حين أن الثانية تربط بين عناصر الأمة المختلفة .

وهذه الأقيسة تختل أيضا بتوجيه مجهودات الأمة الى غير نتيجة مثمرة . ونعنى بالاثمار هنا أن يؤدى كل مجهود إلى زيادة الصحة أو التعليم أو الرقى الأخلاقى أو الاجتماعى . وفى كل أمة مجهودات غير مثمرة تختلف درجات عقمها من صنع أدوات غير لازمة إلا للترفين الفاسدين إلى دراسة موضوعات عقيمة فى الجامعات . ولكن أثر هذا العقم لا يمكن أن يكون عظيما إلا إذا تجاوز الحدود المعقولة . أو هو بكلمة أخرى نسبى . فلا شك مثلا أن الأمة لن تحط حضارتها إذا كانت تنفق واحدا فى المائة من دخلها على الترف . ولكنها تحط إذا أنفقت خمسين فى المائة من دخلها على التجهيزات الحربية كما يحدث الآن فى بعض الأقطار الأوربية . لأن إنفاق هذا المبلغ العظيم يحرم الأمة من أنواع كثيرة من الرقى كانت تستطيعه لولا هذه التجهيزات الحربية . وهذا بصرف النظر عما تؤدى إليه هذه التجهيزات من إيجاد طبقة تستحوذ على قوة ضخمة يخشى خطرها على الأمة .

تختل الحضارة عند ما تقبل الأمة على الترف و يؤدى الترف إلى خمول طوائفها المرشدة ، وعند ما تختلف جماعاتها اختلافا قد يؤدى الى حرب أهلية ، وعند ما تتجه مجهوداتها الى غير ما يثمر إلى الأعمال ، ثم عندما تطول هذه الحال السنين المتوالية نجد أن المدخر من الثقافة يتبدد لأنه لا يجد من يصونه من العلماء والفنيين وأرباب الصناعات . ثم إذا طالت هذه الحال جاء جيل جديد يجهل هذا المدخر من الثقافة فتنكس الحضارة أى تهبط عن مستواها السابق .

ثم إذا طالت الحال أيضا وجدنا أن كل جيل يتخلف عن الجيل الذى سبقه حتى نصل إلى عصر الظلام .

* * *

ولكى نفهم هـذه الأسباب التى تحط الحضارة يمكننا أن نتتبع الانحطاط فى درجاته المختلفة كما نراها فى الأمم التى بلغت الذروة من حضارتها ثم شرعت فى التدهور نحو الحضيض .

فأول ذلك أننا نجد الأخلاق الخاصة أى أخلاق الفرد، تتزعزع . فليس فيها ذلك التماسك السابق أو ليست لها تلك الصرامة أو الاستقامة التى كنا نجدها فى القرون الأولى لرقى الأمة ثم يلى ذلك تزعزع الأخلاق العامة . فالجمهور لا يثق بالموظفين ولا بالحكام . وعندئذ تضيع ثقة الفرد فى الضوابط الاجتماعية ومن هنا يبدأ الإضطراب فإن الفرد يشعر أنه لا ينتصف إذا شكا خصمه فيعمد إلى الانتقام الشخصى . وهو لا يثق بالجباة أو بالقضاة أو بالموظفين الإداريين فهو يعمد إلى الرشوة والخـداع والاعتماد على قوته أو صولته . ومن هنا تفشو الجرائم وتكثر الانتقامات وتنتشر العصابات . ثم بعـد ذلك نجد الحرب الأهلية التى تفتك بالأخلاق وتدمر المؤسسات وتعمم الفوضى وتقطع التقاليد الحسنة . وهنا نجـد على الدوام أن عدوا خارجيا لم يكن له شأن يذكر قد برز فى لوحة التاريخ وانتهز الفرصة وأغار مستعينا بالفوضى التى أحدثتها الحرب الأهليـة . ثم ينتهى القلق وتستقر الأمة ولكن على مستوى منخفض . وهذه هى القرون المظلمة التى انتابت جميع الأمم تقريبا ولولا هذه القرون المظلمة التى انتابت عالم أور با نحو ألف عام لكان العالم الآن أسبق من عالمنـا الحديث بنحو خمسة قرون على الأقل .

* * *

وفى ضوء هذا الذى شرحنا يمكن أن نتساءل : هل تؤدى الحروب الحاضرة أو المستقبلة إلى انقراض الحضارة أو انحطاطها ؟

إن الحرب الحديثة قادرة على التدمير السريع ولكنها أيضا قائمـة على أساس العلم . فإذا شاء قادة الحرب الحديثة أن يحتفظوا للحرب بمستواها التدميرى العظيم فإنهم يجب أن يستعينوا بالعلم ويؤيدوا مؤسساته و يساعدوا على زيادة مكتشفاته . والحضارة العصرية إنمـا تنهض على العلم فلا يمكن اذن أن تؤدى حرب ما إلى انحطاط الحضارة . ولكن لا نستطيع أن نغفل الفوضى التى تعم الأمم المنهزمة ثم جميع نتائج هذه الفوضى التى ذكرناها فيما سلف . كذلك يجب ألا نغفل أن التجهيزات الحربية الضخمة تستغرق معظم موارد الأمة التى كان يمكن أن تستخدم فى رقيها المدنى . والنتيجة التى لا مفر منها أنه إذا كثرت الحروب وتوالت الفوضى فى الأمم تأخرت الحضارة وانحطت عن مستواها السابق . وما تحتاج اليه الحضارة لكى ترقى ينحصر فى ايجاد التعاون بين الأمم بدلا من التنازع وكذلك بين الأفراد فى كل أمة .

(اعتمدنا فى كثير مما ذكرنا هنا على فصل من كتاب "سيكلوجية المجتمع الأنسانى للأستاذ تشارلس ا. الوود)

(The Psychology of Human Society, by Charles A. Ellwood)